حول أدب الرافعي

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

— ٧ —

لقد آن لنا أن نختم هذه الكلمات بعد أن بلغنا من تزييف مقالات « بين العقاد والرافعي » أكثر ما نريد . لقد كانت حملة جائرة قامت على الإفك والباطل تلك التي قام بها صاحب تلك المقالات على الرافعي رحمة الله عليه . وكان أمامنا لتبيين إفكها وباطلها طريقان : طريق يهملها ويجلو للناس حقيقة أدب الرافعي بدراسة ذلك الأدب ونقده ؛ وطريق يدع أدب الرافعي حيث هو ، يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، ويعمد إلى تلك المقالات فيضرب بعضها ببعض وينسفها بعوامل نسفها المستكنة فيها . وكان الطريق الأول يحتاج إلى زمن وجهد أكثر مما يتيسر لنا فاضطررنا إلى الطريق الثاني . ونظن أن لم يبق بحمد الله من تلك المقالات الآن إلا ما يدع اللئم من البناء المنسوف

غير أننا نحب مع ذلك ألا نختم الموضوع من غير أن نقول كلمة نبين بها ما نعتقد أنه الفارق الحقيقي بين المذهبين اللذين يمثلهما في الأدب كل من الرافعي والعقاد

لقد جرى الناس على رد التفاصيل في الأدب إلى أصلين : اللفظ والمعنى ، وأبدأوا في ذلك وأعادوا وأسرفوا في الاختلاف بينهم : أي هذين الأصلين يقدمون على الآخر في تقديم أديب على أديب . واختلافهم هذا شيء عجيب ، فإن اللفظ والمعنى ركنان متلازمان لا يتبين التقصير في أيهما للأديب المكتمل . فكأن مثل اختلافهم ذلك لا تدعو إليه الحاجة إلا عند المفاضلة بين أدباء مقصرين . وإذا كان لا بد من الاعراب في هذا الشأن عن رأي فالتعبير له المقام الأول في الأحوال التي تكون الفكرة المعبر عنها شائعة لا تكلف مجهوداً ؛ والتفكير له المقام الأول إذا كان الموضوع يستلزم إعمال الفكر لاستخراج الصواب ؛ وعندئذ يكفي من التعبير الصحيح ما يجلي ذلك الصواب ، ويكون كل ما يعوق ذلك عيباً ولو كان زيادة تفنن في التعبير . فإن أمكن الجمع بين التفنن في التعبير والجلاء والدقة في المعنى المعبر عنه كان الأديب أمكن في الأدب من غير شك وكان أولى بالتقديم

إن امتلاك ناصية اللغة أمر لا بد منه لكل أديب يريد أن يبلغ في الأدب مرتبة الخلود . وليس معنى هذا أن امتلاك ناصية اللغة وحده كاف للخلود ، فليس في الأدب مكانة لخلود صاحب المعنى الخسيس في اللفظ الأنيق إلا إذا انحط الأدب . إنما الآداب الرفيعة آداب نبل قبل كل شيء : نبل في المعنى ونبل في التعبير على السواء . ونبل التعبير راجع إلى حد كبير لنبل المعنى عند تمام الأداء . لكن لن يستطيع البلوغ في الآداب حد التمام إلا من امتلك ناصية اللغة فلم يعجزه معنى مهما دق أو اتسع عن أن يجد له من التعبير ما يلبسه ويظهره ويستغرقه ، فلا يقصر عنه ولا يزيد عليه . فشرط امتلاك ناصية اللغة شرط أساسي في كل أديب يطمع في ذلك المجد الباقي الذي نسميه الخلود خلود الذكر إذا صار الأديب حديثاً من الأحاديث . هو شرط أساسي لكنه وحده غير كاف ، كالماء أو الهواء أو الطعام كل منها ضروري للحياة لا تقوم بدونه ، لكنه وحده لا يكفي للحياة

وإذا تساءل متسائل أي الأديبين أدل على امتلاك لناصية اللغة واقتدار على التفنن والتصرف في التعبير بها ؟ أدب الرافعي أم أدب العقاد ؟ كان الجواب الذي يسرع إلى الانسان في غير تكلف ولا تحيز : أدب الرافعي كان أملك لناصية اللغة من غير شك وأكثر افتناناً فيها وتصرفاً بها . ولا نظن العقاديين أنفسهم يماررون في هذا ، فأكبر ما ادعاه للعقاد مفتونهم به هو أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد غير بعيدين عن شعر العقاد

لكن التفوق من ناحية اللغة لا يبلغ أن يكون فارقاً بين مذهب ومذهب ، فأبناء المذهب الواحد في الأدب كثيراً ما يتفاوتون في المقدرة اللغوية تفاوتاً مذكوراً . لو كان العقاد ممن يثبطون عن اللغة أو يدعون إلى اتخاذ العامية لغة كتابة كما هي لغة حديث لكان ذلك فارقاً أساسياً بين الرجلين ينسبهما في اللغة إلى مذهبين مختلفين . لكن العقاد لا يفعل شيئاً من هذا . إنه يرجو أحياناً أن يجد الشعر العربي طريقاً إلى أن يتحلل بعض التحلل من القافية ليتسع مثلالشعر اللاتيني ، لكن هذا وحده ،

مهما خالفه الرافعي فيـه إن كان خالفه، لا يكفي لأن يتعاديا فيه أو ينتسبا به إلى مدرستين أو مذهبين في الأدب مختلفين

بقيت ناحية المعنى . ولم نر أحداً ظلم في معانيه مثل ما ظلم الرافعي . فـكلام بعض أنصاره مثل أخينا على الطنطاوي لا يقدر ناحية المعنى حق قدرها فيظن خصوم الرافعي أن هذا هو مذهب الرافعي ، ويتخذونه فيما يتخذون دليـلا على تقصير الرافعي من ناحية المعنى . أخونا الطنطاوي يرى المعاني قريبة المتناول يأخذها الانسان مما يسمع أو يقرأ أو يشاهد ، فلا فضل فيها لأحد على أحد ، ويكون التعبير عنها هو مظهر التفاضل بين أديب وأديب . لـكن هذا إذا صدق على الشائع المألوف من المعاني فليس يصدق على النادر الطريف . ومعاني الرافعي يكثر من بينها الطريف كثرة تدعو إلى العجب ؛ كثرة لا نظن أحداً من المحدثين يفضله فيها أو يزحمه . فالرأي الذي ذهب إليه أخونا الطنطاوي من شأنه — عرضاً — أن يهضم الرافعي من هذه الناحية التي تعد من أكبر مفاخره

وطرافة معاني الرافعي يرجع جزء كبير منها إلى خياله . ومن رأينا أن ناحية الخيال من النواحي التي تفوق فيها الرافعي وامتاز فيها تفوقه في التعبير والبيان . هذه الناحية في الرافعي أدعى إلى الاعجاب حتى من مقدرته اللغوية ، فالمقدرة اللغوية لا تحتاج بعد الاطلاع والاحاطة إلا إلى حسن الاستعمال ؛ لـكن الخيال ملـكة أخرى لعل قوتها ورقيها أدل الدلائل على الشاعرية . ونحن فيما قرأنا للقدماء أو المحدثين لم نرها بلغت من النمو والقوة والسمو ما بلغته في الرافعي . وليس معنى هذا طبعاً أن أدب الرافعي هو خير أدب وجد ، لـكن معناه أن ناحية الخيال أظهر في أدب الرافعي وأسمى منها في أدب أي أديب قرأناه . وسواء أكان من قرأنا لهم في الأدب كثيرين أو قليلين ، فليس لدينا شك في أن ناحية الخيال ناحية امتاز فيها الرافعي وتفوق على العقاد

لـكن ليست المعاني كلها تدور حول الخيال، وإن كان الرافعي لقوة حاسة الخيال فيه يكاد يجد للخيال موضعاً في كل معنى . إن روح المعنى بالطبع هو منزلته من الحق ومن الصواب ، والحق والصواب لهما معايير ليس الخيال أحدها فضلها المتأدبون في هذا العصر حتى كاد الأمر يكون بينهم فوضى . فأما ما اتصل من المعاني بالعلم فمن السهل الرجوع فيه إلى أصل يحسم الخلاف أو يخفف من الخصومة فيه . لـكن ما الحيلة فيما اتصل من المعاني بالفن ، والفن قد كثرت مذاهبه وتضاربت حتى لم يبق لترجيح رأي على رأي ولا مذهب على مذهب إلا الميـل والهوى الذي يسمونه الذوق ؟ كيف يمكن تبين الحق والصواب في ميدان الفن الذي منه ميدان الأدب ، فيما لم يتصـل بعلم وفيما لم يتصل بلغة ؟ إن الوصول إلى جواب صائب على هذا السؤال أمر حيوي لا غنى عنه ألبتة، لا لأنه يعين النقد في الحكم بين أديب وأديب ، أو بين مذهب ، في الفن ومذهب حكما يبقى على الورق لا يدري من تأثر به ، ولـكن ليتبين الناس به سبيلهم في فوضى الفنون هذه فيأخذون من الفنون ويدعون طبق ما هو حق وطبق ما هو خير

إن الفن ومنه الأدب له من الأثر في حياة الفرد وفي حياة الجماعات أكثر مما للعلم ، لأنه متصل بدخيلة هذه الحياة في حين يتصل العلم عند أكثر الناس بظاهرها ؛ وإذا اتصل عند أقلهم بباطن حياتهم النفسية فقد صار باباً من الفن عند ذلك القليل . إن الفن يعمل في نفس الفرد ويكيف حياته الباطنة إن لم يكن كل التكييف فبعض التكييف ، لـكنه على أي حال تكييف بعيد الأثر في حاضر الانسان ومستقبله . ولسنا نغالي إذا قلنا إن مستقبل الانسان فرداً أو جماعة يتوقف الآن على نوع هذا الأثر الذي يحدثه الفن في النفوس

ومن عجيب الأمر أن الناس يكتبون ويتكلمون عن الفن كأنه دائماً يوجه إلى الخير وكأنه دائماً على صواب . إنه ينبغي أن يكون دائماً كذلك من غير شك ، لـكن هل هو دائماً كذلك ؟ بل هل هو غالباً كذلك ؟ إنك لا تستطيع أن تجيب جواباً نافعاً حتى يكون لديك معيار صدق تعرف به الخير من الشر في الفنون كما تستطيع أن تعرف الحق من الباطل في العلوم . ولن تجده في هذه الفوضى السائدة بين مذاهب الفلسفة والأخلاق والفنون وإنما تجده من غير شك في الدين

لـكن أصحابنا المجددين أنصار ما يسمونه الأدب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار . كذلك فزع أحدهم بالعراق ، وكذلك يفزع هذا الآخر في مصر وإن

زعم أنه أفهم منا للدين . ليته كان كذلك حقاً فنتبط له ، فان ذلك مما لا ينقصنا من ديننا شيئاً ولـكن يزيده فى دينه . لـكن المسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب الذى يكتبون كلاماً لا يرجع فيه إلى أصل ثابت ولا معيار . إن كل ما يتصل بالدين ممكن الرجوع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: القرآن . وما غمض علينا من القرآن يمكن تبين معناه المقصود من السنة سنة الرسـول صلوات الله عليه . ونحن معشر المسلمين مأمورون بأن نرد كل ما نختلف فيه إلى الله والرسول إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا) فلعل صاحبنا إن كان أفهم منا للدين لا يعيب كلامنا هذا بأنه من كلام خطباء المساجد ويقبل على تفهم وجه الحجة فيما نلقى عليه فانما الحق والاصلاح نريد

إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة أدبها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله على رسوله محمد بن عبد الله ، أي كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول . إن الاسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها . ومن أخص خصائصه أن يكون الانسان فى خلجات نفسه مع الله ، وأن يخلص نوايا قلبه لله ، وهذا هو معنى إسـلام الوجه لله ، ومنه اكتسب الدين اسمه الـكريم : الاسلام . والمظهر العملى للاسلام هو طبعاً اتباع ما شرع الله للانسان فى الحياة من نظم وأحكام، لـكنه لن يستطيع أن يحقق هذا حتى يكون سره ونجواه ونيته لله . وعن هذا الطريق طريق إسلام الوجه والنفس والقلب لله يكون تمام اتصال الانسان بربه خالق الـكون وفاطر الفطرة الذى إليه المرجع ومنه المدى وبه الحيـاة ...

فاذا كان ذلك كذلك، وإنه لكذلك ، فكيف يجوز فى غريزة أو عقل أو علم أن يجمع الانسان بين الحياة الاسلامية والحياة الفنية أو الأدبية أو العلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق ؟ والتطابق التام بين العلم والاسـلام ثابت لاشك فيه [1] ، فليس فى الثابت من العلم شىء ينقض شيئاً من الاسلام ، وليس فى الاسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العـلم . وكل ما يثبته العلم فى المستقبل يقبله الاسلام مقدماً بنص القرآن ، ويؤول إليه النص إن خالفه فى الظاهر . وهـذا دليل جديد لا ينقض على أن الاسلام هو حقّـا من عند الله فاطر الفطرة ، وأنه حقا دين الفطرة كما وصفه الله فى القرآن . أفلا ينبغى أن يثبّت هذا فى الدين هؤلاء المتزلزلين من أهل «التجديد» الذين يريدون أن يَلُفّـوا الدين ويضعوه على الرف ويقطعوا باسم التقديس ما بينه وبين الحيـاة فى مظاهرها خارج المساجد فى الأدب والفنون والاجتماع ؟

إن الفطرة كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة . فاذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة دين الاسلام فى شىء . فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الانسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابهـا على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح — إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو فى شىء غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودارت الخير وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق ، والتى تريد الفنون أن تكون منها فى الصميم ، فاذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز فى تأثيره ما سبق على عظمه ، فيحول بين الإنسان وبين ربه ، ويدخل عليه الشك فى دينه بأى صورة من الصور ولأى حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المـكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً وإفـكاً فى الفن والأدب والفطرة والدين على السواء

فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه ، وتحريهما التطابق التام بينهما وبينه ، لسنا نعبث ولا نتجنى ولا نتحكم فى الأدب والفن بما لا ينبغى التحكم به فيهما

(١) انظر مقال الاسلام والمدنية والعلم فى عدد الرسالة الممتاز والذى يليه لسنة ١٣٥٥

إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير فى الفن والأدب حين لا معيار لذلك كله فيهما : وليسر للفن والأدب طريق التثبت من انطباقهما على الفطرة التى فطرالله عليها الناس، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة فى الصميم . ونحن بذلك الذى ندعو إليه ونقول بوجوبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم ، فتتحقق وحدة حياة الانسان كلها بذلك وتبرأ حياته من ذلك الداء المستعصى والشر البالغ شر وجود التناقض والتنافر بين ما يعشق من فن ويعتقد من دين . ثم نحن بعد هذا ووراء هـذا نترك الفن والأدب بما قلنا ودعونا إليه من وجوب سيرهما مع الدين يداً بيد ، وجنباً لجنب، وروحاً مع روح ، على الطريق التى يحققان منها رسالتهما فى الناس ، رسالة الصدق والحق والخير والفضيلة والعزة والسعادة والهدى والنور ، لا رسالة الكذب والباطل والشهوة والاثم والمجون والفجور

فالمسألة فى الأدب — إذ لا بد من الرجوع إلى ما كنا فيه — ليست مسألة لفظ ومعنى فقط ولـكنها فى صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل، لا يفرق بين معروف ومنكر، ثم يصف ما لقى فى ذلك من لذة أو ألم أو غيرهما من ألوان الشعور ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدها الله ، وبمظاهرها المختلفة فى الفطرة كما طهرها الله، لا كما دنسها أو يريد أن يدنسها الانسان ، ويصف ما يتمتع به من تلك وما يلقى أو يتجشم فى سبيل ذلك غير ناس لحظة أن الوجود كله من الله وأن الدين كله لله ، وما يصف ويحلل يخرجه للناس على أنه هو الأدب . فأى الأدبين يا ترى أرحب وأسمى وأطهر ، وأيهما أولى بالحياة وأصلح للبقاء ؟ إنه لا شك عندى فيما تجيب به بفطرتك على هذا السؤال

إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه بالأدب الجديد ويمثله العقاد ، وأدب الفريق الثانى هو ما يسمونه بالأدب القديم ويمثله الرافعى ، وقد عرفت الآن فيم يتفقان وفيم يفترقان . الرافعى كما قلنا يتفوق على العقاد فى التعبير وفى الخيال ؛ وكلاهما يحتفل بالمعنى أكبر احتفال؛ غير أن الرافعى عنده نور يهتدى به ليس عند العقاد فكان لذلك أقل من العقاد عاباً وأكثر صواباً . لـكن ذلك كله لا يكفى لأن يفرق بين أدبيهما تفريقاً يجعل منهما ممثلى مذهبين مختلفين فى الأدب . إنما الخلاف الأساسى بينهما خلاف فى الروح؛ هما من حيث الروح مختلفان كل الاختلاف ، وعندك للحكم بين الروحين معيار صدق لا يخطئ هو معيار الدين . وإذا أردت معياراً جزئياً يغنيك عند التقريب فمعيار الخلق الفاضل . وإذا قست الأدبين بأحد هذين المعيارين لم يبق عندك شك فى أيهما أولى بالاكبار وأصلح للبقاء لأنه أعون للانسان على الارتقاء : الأدب الأخلاق أم الأدب غير الأخلاق ، على ألطف وأخف تعبير

والقياس الذى نبهنا إليـه فى الفن والأدب ليس من البعد عن الفن والأدب كما يصور المقاديون ، بل هو من روح الفن والأدب فى الصميم . أليس روح الفن والأدب الجمال ؟ أليس الجمال النفسى روح الجمال الانسانى ؟ ثم أليس روح الجمال النفسى إخباته وإخلاده وإسلامه لله ؟ من هـذا الاخبات والاخلاد والانقياد لله تأتى الفضيلة والسلامة والسعادة فى الحيـاة ، ومن محبة الله سبحانه يشيع فى النفس الهدى ويشع منها النور. فقل لى بربك كيف يمكن أن يكون لأدبهم المـكشوف نصيب من روح الجمال الانسانى يستهوى النفس التى فيها بقية من الفضيلة والخير ؟ إنا لا نشك فى أن ذلك الأدب المكشوف مثل سارة وما إليها يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة من النفس ويؤذى أول ما يؤذى حاسة الجمال النفسى فى الانسان . فهو فى صميمه أدب غير جميل ، يلذه ويستمع به من مسخت نفسه فصارت تعاف الطيب وتستمرئ الخبيث . أما غير هذه النفوس مما لا يزال لها من الخير والفضيلة والدين نصيب فانها تجد صعوبة فى أن تمضى فى قراءة مثل ذلك الـكتاب إلى تمامه إلا أن تعطل من ذوقها أو تنيم من ضميرها أو تحتال عليه بالاقرار له أن الـكتاب من الناحية الخلقية معيب قبيح لـكنها تقرأه لتحيط بأدب العصر أو لتدرس من الـكتاب أسلوبه أو ما شابه ذلك من معاذير . ويكون جزاؤها على ذلك أن تخرج من القراءة وقلبها أكثر مرضاً ، وذوقها الأدبى أقل تمييزاً ، وحسها الخلقى أكثر اعتلالاً . ولا تلبث إذا تكرر ذلك منها أن تفقد أكبر مميزاتها ومزاياها فتهبط من معارج الرقى النفسانى إلى مدارج الانحطاط ؛ ويكون الأدب المكشوف بذلك قد فعل فعله وأدى رسالته من مسخ الطباع وإفساد النفوس والصد عن سبيل الله

محمد أحمد الغمراوى